ويؤتوا الزكاة ويحجوا البيت ويصوموا رمضان » وهكذا من قال لااله الاالله متشهدا بها شهادة الاسلام ولم يكن قد مضى عليه من الوقت مايجب فيه شيء من أركان الاسلام ، فالواجب حمله على الاسلام عملا بما أقر به لسانه واخبر به من اراد قتاله ولهذا قال صلى الله عليه وآله وسلم لاسامة بن زيد ماقال. وأما من تكلم بكلمة التوحيد وفعل افعالا تخالف التوحيد كاعتقاد هؤلاء المعتقدين في الاموات فلا ريب انه قد تبين من حالهم خلاف ماحكته ألسنتهم من اقرارهم بالتوحيد ، ولو كان مجرد التكلم بكلمة التوحيد موجبا الدخول في الاسلام والخروج من الكفر سواء فعل المتكلم بها مايطابق التوحيد أو يخالفه لكانت نافعة لليهود مع انهم يقولون عزير ابن الله وللنصارى مع انهم يقولون المسيح ابن الله وللمنافقين مع انهم يكذبون بالدين ويقولون بألسنتهم ماليس في قلوبهم ، وجميع هذه الطوائف الثلاث يتكلمون بكلمة التوحيد بل لم تنفع الخوارج فانهم من أكمل الناس توحيدا وأكثرهم عبادة وهم كلاب النار وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقتلهم مع انهم لم يشركوا بالله ولا خالفوا معنى لا اله الا الله بل وحدوا الله توحيده ، وكذلك المانعون للزكاة هم موحدون لم يشركوا ولكنهم تركوا ركنا من أركان الاسلام ولهذا أجمعت الصحابة رضي الله عنهم على قتالهم بل دل الدليل الصحيح المتواتر على ذلك وهو الاحاديث الواردة بألفاظ منها « أمرت ان أقاتل الناس حتى يقولوا لااله الا الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويحجوا البيت ويصوموا رمضان فاذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم الابحقها » فمن ترك هذه الخمس ، لم يكن معصوم الدم ولا المال ، وأعظم من ذلك تارك معنى التوحيد والمخالف له بما يأتي به من الافعال

(فان قلت) هؤلاء المعتقدون في الاموات لايعلمون بأن مايفعلونه شرك بل لو عرض أحدهم على السيف لم يقر بأنه مشرك بالله ولا فاعل لما هو شرك بل ولو علم أدنى علم ان ذلك شرك لم يفعله (قلت) الامر كما قلت ولكن لايخفى عليك ما تقرر في أسباب الردة انه لايعتبر في ثبوتها العلم بمعنى ما قاله من جاء بلفظ كفري أو فعل فعلا كفريا . وعلى كل حال فالواجب على كل من اطلع على شيء من هذه الاقوال والافعال التي اتصف بها المعتقدون في الاموات ان يبلغهم الحجة الشرعية ويبين لهم ما أمره الله ببيانه وأخذ عليه الميثاق ان لا يكتمه

كما حكي ذلك لنا في كتابه العزيز فيقول لمن صار يدعو الاموات عند الحاجات، ويستغيث بهم عند حلول المصيبات، وينذر لهم النذور، وينحر لهم النحور، ويعظمهم تعظيم الرب سبحانه: ان هذا الذي يفعلونه هو الشرك الذي كانت عليه الجاهلية وهو الذي بعث الله رسوله بهدمه، وانزل كتبه في ذمه، وأخذ على النبيين ان يبلغوا عباده انهم لا يؤمنون حتى يخلصوا له التوحيد ويعبدوه وحده. فاذا علموا بهذا علما لا يبقى معه شك ولا شبهة ثم اصروا على ما هم فيه من الطغيان، والكفر بالرحمن، وجب عليه ان يخبرهم بأنهم اذا لم يقلعوا عن هذه الغواية، ويعودوا الى ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الهداية، فقد حلت دماؤهم وأموالهم، فان رجعوا والا فالسيف هو الحكم العدل كما نطق به الكتاب المبين وسنة سيد المرسلين في اخوانهم من المشركين

(فان قلت) فقد ورد الحديث الصحيح بأن الخلائق يوم القيامة يأتون آدم فيدعونه ويستغيثونه ثم نوحا ثم ابراهيم ثم موسى ثم عيسى ثم محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وسائر اخوانه من الانبياء (قلت) أهل المحشر انما يأتون هؤلاء الانبياء يطلبون منهم ان يشفعوا لهم الى الله سبحانه ويدعوا لهم بفصل الحساب والاراحة من ذلك الموقف وهذا جائز فانه من طلب الشفاعة والدعاء المأذون فيهما، وقد كان الصحابة يطلبون من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حياته ان يدعو لهم كما في حديث يارسول الله ادع الله ان يجعلني منهم لما اخبرهم بأنه يدخل الجنة سبعون ألفا وحديث « سبقك بها عكاشة » وقول أم سليم يارسول الله خادمك انس ادع الله له ، وقول المرأة التي كانت تصرع يارسول الله ادع الله لي ، وآخر الامر سألته الدعاء بأن لا تنكشف عند الصرع فدعا لها ، ومنه ارشاده صلى الله عليه وآله وسلم لجماعة من الصحابة بأن يطلبوا الدعاء من أويس القرني اذا أدركوه ، ومنه ماورد في دعاء المؤمن لاخيه بظهر الغيب ، وغير ذلك مما لا يحصر حتى ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعمر لما خرج معتمراً « لا تنسني يا أخي من دعائك » فمن جاء الى رجل صالح واستمد منه ان يدعو له فهذا ليس من ذلك الذي يفعله المعتقدون في الاموات بل هو سنة حسنة وشريعة ثابتة ، وهكذا طلب الشفاعة ممن جاءت الشريعة المطهرة بأنه من أهلها كالانبياء ولهذا يقول الله لرسوله يوم القيامة « سل تعطه واشفع تشفع » وذلك هو المقام المحمود الذي وعده الله به كما في كتابه العزيز

والحاصل ان طلب الحوائج من الاحياء جائز اذا كانوا يقدرون عليها ومن ذلك الدعاء فانه يجوز استمداده من كل مسلم بل يحسن ذلك ، وكذلك الشفاعة من أهلها الذين ورد الشرع بأنهم يشفعون ، ولكن ينبغي ان يعلم ان دعاء من يدعو له لا ينفع الا باذن الله وارادته ومشيئته ، وكذلك شفاعة من يشفع لا يكون الا باذن الله كما ورد بذلك القرآن العظيم ، فهذا تقييد للمطلق لا ينبغي العدول عنه بحال

واعلم ان من الشبة الباطلة التي يوردها المعتقدون في الاموات انهم ليسوا كالمشركين من أهل الجاهلية لانهم انما يعتقدون في الاولياء والصالحين وأولئك اعتقدوا في الاوثان والشياطين . وهذه الشبة داحضة تنادي على صاحبها بالجهل ، فان الله سبحانه لم يعذر من اعتقد في عيسى عليه السلام وهو نبي من الانبياء (بل) خاطب النصارى بتلك الخطابات القرآنية ومنها (يا أهل الكتاب لا تغلو في دينكم ولا تقولوا على الله الا الحق ، انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله) وقال لمن كان يعبد الملائكة (ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة : أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون ؟ *قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) ولاشك ان عيسى والملائكة أفضل من هؤلاء الاولياء والصالحين الذين صار هؤلاء القبوريون يعتقدونهم ويغلون في شأنهم مع ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هو أكرم الخلق على الله وسيد ولد آدم وقد نهى أمته ان تغلو فيه كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام ولم يمتثلوا أمره ولم يمتثلوا ما ذكره الله في كتابه العزيز من قوله (ليس لك من الامر شيء) ومن قوله (وما ادراك مايوم الدين ؟ *ثم ما ادراك ما يوم الدين ؟ *يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) وما حكاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من انه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً وما قاله صلى الله عليه وآله وسلم لقرابته الذين أمره الله بانذارهم بقوله (وأنذر عشيرتك الاقربين) فقام داعيا لهم ومخاطبا لكل واحد منهم قائلا يافلان ابن فلان لا أغني عنك من الله شيئا يافلانة بنت فلان لا أغني عنك من الله شيئا يابني فلان لا أغني عنكم من الله شيئا . فانظر رحمك الله تعالى ما وقع من كثير من هذه الامة من الغلو المنهي عنه المخالف لما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، كما يقول صاحب البردة رحمه الله تعالى

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به * سواك عند حلول الحادث العمم

فانظر كيف نفى كل ملاذ ما عدا عبدالله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وغفل عن ذكر ربه ورب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . انا لله وانا اليه راجعون

وهذا باب واسع . قد تلاعب الشيطان بجماعة من أهل الاسلام حتى ترقوا الى خطاب غير الانبياء بمثل هذا الخطاب، ودخلوا من الشرك في أبواب، بكثير من الاسباب ومن ذلك قول من يقول مخاطبا لابن العجيل :

هات لي منك يا ابن موسى اغاثه * عاجلا في سيرها حثاثه

فهذا محض الاستغاثة التي لا تصلح لغير الله (١) لميت من الاموات قد صار تحت اطباق الثري منذ مئين السنين ، ويغلب على الظن ان مثل هذا البيت والبيت الذي قبله انما وقعا من قائليهما لغفلة وعدم تيقظ ولا مقصد لهما الا تعظيم جانب النبوة والولاية ولونبها لتنبها واقرا بالخطأ ، وكثير ما يعرض ذلك لاهل العلم والادب والفطنة وقد سمعنا وارينا ، فمن وقف على شيء من هذا الجنس لحي من الاحياء فعليه ايقاظه بالحجج الشرعية فان رجع والا كان الامر فيه كما أسلفناه، وأما اذا كان القائل قد صار تحت اطباق الثرى فينبغي ارشاد الاحياء الى مافي ذلك الكلام من الخلل ، وقد وقع في البردة والهمزية شيء كثير من هذا الجنس ووقع أيضاً لمن تصدى لمدح نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ولمدح الصالحين والائمة الهادين ما لا يأتي عليه الحصر ولا يتعلق بالاستكثار منه فائدة فليس المراد الا التنبيه والتحذير لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد (وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين — ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنامن لدنك رحمة انك أنت الوهاب)

واعلم انما حرناه وقررناه من ان كثيرا مما يفعله المعتقدون في الاموات يكون شركا قد يخفى على كثير من أهل العلم وذلك لا لكونه خفيا في نفسه بل لاطباق الجمهور على هذا الامر وكونه قد شاب عليه الكبير وشب عليه الصغير ، وهو يرى ذلك ويسمعه ولا يرى ولا يسمع من ينكره، بل ربما يسمع من يرغب فيه ويندب الناس اليه، وينضم الى ذلك ما يظهره الشيطان للناس من قضاء حوائج من قصد بعض الاموات الذين لهم شهرة وللعامة فيهم اعتقاد، وربما يقف جماعة من المحتالين على قبر ويجلبون الناس بأكاذيب يحكونها عن ذلك الميت ليستجلبوا منهم النذور ويستدروا منهم الارزاق ويقتنصوا

(١) لعل الاصل « لغير الله من الاحياء فكيف تصلح لميت الخ» وكتبه صالح

النحائر ويستخرجوا من عوام الناس مايعود عليهم وعلى من يعولونه ويجعلون ذلك مكسبا ومعاشا وربما يهولون على الزائر لذلك الميت بتهويلات ويجعلون قبره بما يعظم في عين الواصلين اليه ويوقدون في المشهد الشموع ويوقدون فيه الاطياب ، ويجعلون لزيارته مواسم مخصوصة يتجمع فيها الجمع الجم فيبهر الزائر ويرى مايملأ عينه وسمعه من ضجيج الخلق وازدحامهم وتكالبهم على القرب من الميت والتمسح بأحجار قبره واعواده والاستغاثة به والالتجاء اليه وسؤاله قضاء الحاجات ونجاح الطلبات مع خضوعهم واستكانتهم وتقريبهم اليه نفائس الاموال ونحرهم اصناف النحائر فبمجموع هذه الامور مع تطاول الازمنة وانقراض القرن بعد القرن يظن الانسان في مبادئ عمره وأوائل أيامه ان ذلك من أعظم القربات وأفضل الطاعات ثم لاينفعه ماتعلمه من العلم بعد ذلك بل يذهل من كل حجة شرعية تدل على ان هذا هو الشرك بعينه واذا سمع من يقول ذلك انكره ونبا عنه سمعه وضاق به ذرعه ، لانه يبعد كل البعد ان ينقل ذهنه دفعة واحدة في وقت واحد عن شيء يعتقده من أعظم الطاعات الى كونه من اقبح القبحات وأكبر المحرمات ، مع كونه قد درج عليه الاسلاف ودب فيه الاخلاف ، وتعاودته العصور ، وتناوبته الدهور ، وهكذا كل شيء يقلد الناس فيه اسلافهم ويحكون العادات المستمرة ، وبهذه الذريعة الشيطانية ، والوسيلة الطاغوتية ، بقي المشرك من الجاهلية على شركه ، واليهودي على يهوديته ، والنصراني على نصرانيته ، والمبتدع على بدعته ، وصار المعروف منكرا والمنكر معروفا ، وتبدلت الامة بكثير (١) المسائل الشرعية غيرها ، وألفوا ذلك ومرنت عليه نفوسهم ، وقبلته قلوبهم ، وأنسوا اليه حتى لو اراد من يتصدى للارشاد ان يحملهم على المسائل الشرعية البيضاء النقية التي تبدلوا بها غيرها لنفروا عن ذلك ولم تقبله طبائعهم ، ونالوا ذلك المرشد بكل مكروه ، ومزقوا عرضه بكل لسان ، وهذا كثير موجود في كل فرقة من الفرق لاينكره الا من هو منهم في غفلة

وانظر ان كنت ممن يعتبر ما ابتليت به هذه الامة من التقليد للاموات في دين الله حتى صارت كل طائفة تعمل في جميع مسائل الدين بقول عالم من علماء المسلمين ولا تقبل قول غيره ولا ترضى به ، وليتها وقفت عند عدم القبول

(١) لعل الاصل : بكثير من المسائل

والرضى لكنها تجاوزت ذلك الى الحط على سائر علماء المسلمين والوضع من شأنهم وتضليلهم وتبديعهم والتغيير عنهم ، ثم تجاوزوا ذلك الى التفسيق والتكفير ، ثم زادوا الشر حتى صار أهل كل مذهب كاهل ملة مستقلة لهم نبي مستقل وهو ذلك العالم الذي قلدوه فليس الشرع الا ماقال به دون غيره ، وبالغوا وغلوا فجعلوا قوله مقدما على قول الله ورسوله ، وهل بعد هذه الفتنة والمحنة شيء من الفتن والمحن؟ فان انكرت هذا فهؤلاء المقلدون على ظهر البسيطة قد ملأوا الاقطار الاسلامية فاعمد على كل مذهب (١) وانظر الى مسألة من مسائل مذهبهم هي مخالفة لكتاب الله أو لسنة رسوله ثم أرشدهم الى الرجوع عنها الى ما قاله الله ورسوله وانظر بماذا يجيبونك ، فما أظنك تنجو من شرهم ، ولا تأمن من معرتهم ، وقد يستحلون لذلك دمك ومالك وأورعهم يستحل عرضك وعقوبتك ، وهذا يكفيك ان كان لك فطانة سليمة ، وفكرة مستقيمة

فانظر كيف خصوا بعض علماء المسلمين ، واقتدوا بهم في مسائل الدين ، ورفضوا الباقين ، بل جاوزوا هذا الى ان الاجماع ينعقد بأربعة من علماء هذه الامة وان الحجة قائمة بهم ، مع ان في عصر كل واحد منهم من هو أكثر علما منه ، فضلا عن العصر المتقدم على عصره والعصر المتأخر عن عصره ، وهذا يعرفه كل من يعرف أحوال الناس ، ثم تجاوزوا في ذلك الى انه لا اجتهاد لغيرهم بل هو مقصور عليهم ، فكان هذه الشريعة كانت لهم لاحظ لغيرهم فيها ، ولم يتفضل الله على عباده بما تفضل عليهم ، وكل عاقل يعلم ان هذه المزايا التي جعلوها لهؤلاء الائمة رحمهم الله تعالى ان كانت باعتبار كثرة علمهم وزيادته على علم غيرهم فهذا مدفوع عند كل من له اطلاع على أحوالهم وأحوال غيرهم ، فان في أتباع كل واحد منهم من هو أعلم منه ، لاينكر هذا الا مكابر أو جاهل ، فكيف بمن لم يكن اتباعهم من المعاصرين لهم والمتقدمين عليهم والمتأخرين عنهم

وان كانت تلك المزايا بكثرة الورع والعبادة فالامر كما تقدم فان في معاصريهم والمتقدمين عليهم والمتأخرين عنهم من هو اكثر عبادة وورعا منهم لاينكر هذا الامر الا من لم يعرف تراجم الناس بكتب التواريخ

وان كانت تلك المزايا بتقدم عصورهم فالصحابة رضي الله عنهم والتابعون اقدم منهم عصرا بلا خلاف وهم أحق بهذه المزايا ممن بعدهم لحديث « خير

(١) كذا والظاهر ان الاصل : فاعمد الى أهل كل مذهب

القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين الذين يلونهم »

وان كانت تلك المزايا لا مرعقلي فماهو ؟ اولا مرشرعي فأين هو ؟ (١) ولا ننكران الله قد جعلهم بمحل من العلم والورع وصلابة الدين وانهم من أهل السبق في الفضائل والفواضل ، ولكن الشأن في التعصب لهم من اتباعهم القائل (٢) انه لايجوز تقليد غيرهم ولا يعتد بخلافه ان خالف ، ولا يجوز لاحد من علماء المسلمين ان يخرج عن تقليدهم وان كان عارفا بكتاب الله وسنة رسوله قادرا على العمل بما فيهما متمكنا من استخراج المسائل الشرعية منهما ، فلم يكن مقصودنا الا التعجب لمن كان له عقل صحيح وفكر رجيح ، وتهون الامر عليه فيما نحن بصدده من الكلام على ما يفعله المعتقدون للاموات وانه لايغتر العاقل بالكثرة ، وطول المهلة مع الغفلة ، فان ذلك لو كان دليلا على الحق لكان مازعمه المقلدون المذكورون حقا ، ولكان ما يفعله المعتقدون للاموات حقا وهذا عارض من القول أوردناه للتمثيل ولم يكن من مقصودنا

والذي نحن بصدده هو انه اذا خفي على بعض أهل العلم ماذكرناه وقررناه في حكم المعتقدين من للاموات لسبب من أسباب الخفاء التي قدمنا ذكرها ولم يتعقل ما سقناه من الحجج البرهانية القرآنية والعقلية فينبغي ان نسأله ماهو الشرك؟ فان قال هو ان تتخذ مع الله الهاً آخر كما كانت الجاهلية تتخذ الاصنام آلهة مع الله سبحانه (قيل له) وماذا كانت الجاهلية تصنعه لهذه الاصنام التي اتخذوها حتى صاروا مشركين ؟ فان قال كانوا يعظمونها ويقربون لها ويستغيثون بها وينادونها عند الحاجات وينحرون لها النحائر ونحو ذلك من الافعال الداخلة في مسمى العبادة — فقل له : لاي شيء كانوا يفعلون لها ذلك ؟ فان قال لكونها الخالقة الرازقة او المحيية اوالمميتة فاقرأ ما قدمنا لك من البراهين القرآنية

(١) الذي سمعناه من بعض شيوخنا المقلدين هو ان سبب حصرهم التقليد في فروع الفقه في أبي حنيفة ومالك والشافعي واحمد بن حنبل هو ان مذاهبهم قد نقلت وخدمت فصارت كافية للامة وفقه سائر المجتهدين من علماء الامصار كسفيان الثورى والاوزاعي قد انقرضت — وهذا القول مردود أيضاً فان مذاهب آل البيت عليهم السلام قد نقلت أيضاً وفيها مؤلفات حافلة . ومذاهب علماء الصحابة وعلماء التابعين قد نقل الكثير الطيب منها أهل الحديث بأصح من نقل أقوال أبي حنيفة وأصحابه مثلا (٢) لعل الاصل « القائلين »

المصرحة بأنهم مقرون بأن الله الخالق الرازق المحيي المميت وانهم انما عبدوها لتقربهم الى الله زلفى ، وقالوا هم شفعاءوهم عند الله ولم يعبدوها لغير ذلك ، فانه سيوافقك ولا محالة ان كان يعتقدان كلام الله حق وبعد ان يوافقك أوضح له ان المعتقدين في القبور قدفعلوا هذه الافعال أو بعضها على الصفة التي قررناها وكررناها (١) في هذه الرسالة فانه ان بقي فيه بقية من انصاف وبارقة من علم وحصة من عقل فهو لامحالة يوافقك وتنجلي عنه الغمرة ، وتنقشع عن قلبه سحائب الغفلة ، ويعترف بأنه كان في حجاب ، عن معنى التوحيد الذي جاءت به السنة والكتاب ، فان زاغ عن الحق وكابر وجادل فان جاءك في مكابرته ومجادلته بشيء من الشبه فادفعه بالدفع الذي قد ذكرناه فيما سبق فانا لم تدع شبهة يمكن ان يدعيها مدع الا وقدأوضحنا أمرها ، وان لم يأت بشيء في جداله بل اقتصر على مجرد الخصام والدفع المجرد لما أوردته عليه من الكلام ، فاعدل معه عن حجة اللسان بالبرهان والقرآن الى محجة السيف والسنان ، فآخر الدواء الكي : هذا اذا لم يمكن دفعه بما هو دون ذلك من الضرب والحبس والتعزير فان امكن فتقديم الاخف على الاغلظ عملا بقوله تعالى (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) وبقوله تعالى (ادفع بالتي هي أحسن)

ومن جملة الشبه التي عرضت لبعض أهل العلم ماجزم به السيد العلامة محمد بن اسماعيل الامير رحمه الله تعالى في شرحه لأبياته التي يقول في أولها :

* رجعت عن النظم الذي قلت في نجدي * فانه قال : ان كفر هؤلاء المعتقدين للاموات هو من الكفر العملي لا الكفر الجحودي ، ونقل ما ورد في كفر تارك الصلاة كما ورد في الاحاديث الصحيحة وكفر تارك الحج (٢) كما في قوله تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ونحو ذلك من الادلة الواردة فيمن زنى ومن سرق ومن اتى امرأة حائضاً او امرأة في دبرها أو أتى كاهنا او عرافا أو قال لاخيه يا كافر. قال : فهذه الانواع من الكفر وان اطلقها الشارع على فعل هذه الكبائر فانه لايخرج به العبد عن الايمان ويفارق به الملة ويباح به دمه ، وماله وأهله كما ظنه من لم يفرق بين

(١) كان الاصل قررناه وبيناه ولعله خطأ من الناسخ : (٢) المراد بماورد في كفر تارك الحج قوله تعالى (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا ومن كفر فان الله غني عن العالمين)

الكفرين ، ولم يميز بين الامرين وذكر ما عقده البخاري في صحيحه من كتاب الايمان (في كفر دون كفر) وما قاله العلامة ابن القيم ان الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة من الكفر العملي . وتحقيقه ان الكفر كفر عمل وكفر جحود وعناد فكفر الجحود ان يكفر بما علم ان الرسول جاء به من عند الله جحودا وعنادا فهذا الكفر يضاد الايمان من كل وجه ، وأما كفر العمل فهو نوعان نوع يضاد الايمان ونوع لايضاده ،ثم نقل عن ابن القيم كلاما في هذا المعنى

ثم قال السيد المذكور : قلت ومن (هذا يعني الكفر العملي) من يدعو الاولياء ويهتف بهم عند الشدائد ويطوف بقبورهم ويقبل جدرانها وينذر لها بشيء من ماله فانه كفر عملي لا اعتقادي فانه مؤمن بالله وبرسوله صلى الله عليه وآله وسلم وباليوم الآخر ، لكن زين له الشيطان ان هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفعون ويضرون فاعتقدوا ذلك كما اعتقد ذلك أهل الجاهلية في الاصنام لكن هؤلاء مثبتون للتوحيد لله لايجعلون الاولياء آلهة كما قاله الكفار انكارا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لما دعاهم الى كلمة التوحيد (أجعل الآلهة الهاً واحداً ؟) فهؤلاء جعلوا لله شركاء حقيقة فقالوا في التلبية: لبيك لاشريك لك ، الا شريكا هولك ، تملكه وما ملك . فاثبتوا للاصنام شركة مع رب الانام وان كانت عباراتهم الضالة قد افادت انه لاشريك له لانه اذا كان يملكه وما ملك فليس شريك له تعالى بل مملوك ، فعباد الاصنام الذين جعلوا لله اندادا واتخذوا من دونه شركاء وتارة يقولون شفعاء يقربونهم الى الله زلفى، بخلاف جهلة المسلمين الذين اعتقدوا في أوليائهم النفع والضر فانهم مقرون لله بالوحدانية وافراده بالآلهية وصدقوا رسله فالذي أتوه من تعظيم الاولياء كفر عمل لا اعتقاد فالواجب وعظهم وتعريفهم جهلهم وزجرهم ولو بالتعزير كما أمرنا بجد الزاني والشارب والسارق من أهل الكفر العملي — الى ان قال — فهذه كلها قبائح محرمة من أعمال الجاهلية فهو من الكفر العملي ، وقد ثبت ان هذه الامة تفعل أمورا من أمور الجاهلية هي من الكفر العملي لحديث « أربع في أمتي من امر الجاهلية لايتركونهن: الفخر في الاحساب ،والطعن في الانساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة » أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي مالك الاشعري . فهذه من الكفر

العملي (١) لاتخرج به الامة عن الملة بل هم مع اتيانهم بهذه الخصلة الجاهلية

(١) ان الخطأ الذي وقع فيه العلماء بسوء الفهم أقل من الخطأ الذي وقعوا فيه بسوء تطبيق الاعمال على النصوص وقد وقع هـذا العالم في كليهما فهو لم يعرف الفرق بين الـكفر بالعمل والـكفر بالاعتقاد ولا الفرق بين معنى الاله ومعنى الرب في المفهوم لاتحادهما في المصدق . فأما كفر الاعتقاد فهو مخالفة عقائد الاسلام في مسألة اعتقادية وما ينشأ عنها من عمل كالاعمال الكثيرة التي يذكرها الفقهاء في باب الردة ، وأما الـكفر العملي فهو الاتيان بعمل مما يحرمه الاسلام ويعمله الـكفار غير صادر عن اعتقاد ديني كالنياحة على الميت والطعن في انساب الناس ، ومسألة دعاء الموتى والاستغاثة بهم والنذر لهم وغير ذلك مما ذكر في الرسالة من الاول كما أوضحه الامام الشوكاني هنا في الرد عليه ولـكن غاية مافى هذا الرد ان يبين سبب تسمية مشركي العرب دعاء الاصنام وغيرها عبادة وتسميتها آلهة ، وهذا السبب هو انهم كانوا أهل اللغة وكل ما يدعى ويعتقد ان له سلطة وتأثيرا وراء الاسباب المشتركة بين جميع المخلوقات فاسمه في لغتهم اله ولـكن لايطلقون عليه اسم الجلالة (الله) لانه اسم الرب الخالق وحده — وهذا الدعاء وكل تعظيم وعمل يوجه الى من يعتقد فيه ما ذكر فاسمه في لغتهم عبادة .

وأما هؤلاء المسلمون الذين سرت اليهم تلك العقيدة الوثنية وما نشأ عنها من أعمال العبادة ليسوا من أهل اللغة العربية بالملـكة والسليقة بل لهم اصطلاحات دينية وغير دينية في لغتهم المأخوذ أصلها عن العرب فلذلك يخالفونهم في التسمية . والفرق الحقيقي بينهما في شركهما ان المنتمين الى الاسلام من هؤلاء القبوريين اذا علم ان اعتقاده وعمله مخالف لعقيدة الاسلام وشرعه فانه يتركه ولو تقليدا ، وأولئك كان تقليدهم في الشرك فلم يكن يرجعهم عنه الا البرهان العقلي والا بقوا عليه . فالقبوريون قد اتخذوا أصحاب القبور التي يعظمونها آلهة وان لم يسموا عبادتهم باسمها العربي وان لم يسموهم آلهة والتسمية مسألة عرفية ، وعبدوا هذه القبور ومن دفن فيها بل سموها توسلا واستشفاعا وقد أثبت القرآن عين هذا التوسل والاستشفاع للمشركين

وأما الفرق بين معنى لاله والرب فهو ان الرب في لغة العرب هو السيد المالك والمربي والمتصرف في الاشياء وهو من أسماء الله تعالى ولاسيما اذا كان =

اضافهم الى نفسه فقال «من أمتي»

(فان قلت) أهل الجاهلية تقول في أصنامها انهم يقربونهم الى الله زلفى كما يقوله القبوريون ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . كما يقوله القبوريون (قلت) لا سواء فان القبوريين مثبتون للتوحيد لله قائلون انه لا اله الا هو ولو ضربت عنقه على ان يقول ان الولي اله مع الله لما قالها بل عنده اعتقاد جهل ان الولي لما اطاع الله كان له بطاعته عنده تعالى جاه به تقبل شفاعته ويرجى نفعه لا أنه اله مع الله، بخلاف الوثني فانه امتنع عن قول لا اله الا الله حتى ضربت عنقه زاعما ان وثنه اله مع الله ويسميه ربا والهاقال يوسف عليه السلام (أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) سماهم أربابا لانهم كانوا يسمونهم بذلك كما قال الخليل «هذا ربي» في الثلاث الآيات مستفهما لهم مبكتا متكلما على خطابهم حيث يسمون الكواكب أربابا وقالوا (أجعل الآلهة الها واحدا ؟) وقال قوم

= معرفا (الرب) وبينه وبين الاله عموم وخصوص مطلق يجتمعان بحق في اطلاقهما على الله تعالى وبالباطل في اطلاقهما على الكواكب عند من اعتقد أن لها تصرفا ذاتيا في الخلق والتدبير كقوم ابراهيم وعلى مصدري النور والظلمة والخير والشر عند القائلين بذلك من الفرس وغيرهم ، وينفرد اسم الاله باطلاقه على ما عبد ولم يعتقد ان له تأثيرا في الخلق والتدبير كاصنام جاهلية قريش وغيرها من العرب فانهم لم يتخذوهم أربابا وانما عبدوهم بالدعاء والذبائح ونحو ذلك ليقربوهم الى الله تعالى ويشفعوا لهم عنده كما هو صريح الآيات الكثيرة التي تحتج عليهم بأن كون الله تعالى هو الرب الخالق المدبر النافع الضار كما يعتقدون انه يقتضي الا يعبد غيره . فشرك الالهية هو كل دعاء وتعظيم وعمل باعثه اعتقاد تأثير المعظم المدعو عند الله تعالى بحمله على جلب نفع او دفع ضر لولاه لم يفعله تعالى بمحض ارادته فيكون له اشتراك في حصول ذلك بتأثيره في ارادة الله ، تعالى الله عن تأثير المؤثرات الحادثة .

والشرك في الربوبية نوعان (أحدهما) اعتقاد التأثير الذاتي في الخلق وتدبير أمور العالم فيما هو فوق الاسباب العادية المشتركة بين الخلق (والثاني) قبول التشريع الديني في العبادات والحلال والحرام من غير الله كما ورد في تفسير (اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) مرفوعا الى النبي صلى الله عليه وسلم فليراجع

براهيم (من فعل هذا بآلهتنا؟ أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا ابراهيم؟) وقال ابراهيم (أأفكا آلهة دون الله تريدون ؟) ومن هنا يعلم ان الكفار غير مقرين بتوحيد الالهية والربوبية كما توهمه من توهم من قوله (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ـ ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولن خلقهن العزيز العليم *قل من يرزقكم من السماء والارض ـ الى قوله ـ فسيقولون الله) فهذا اقرار بتوحيد الخالقية والرازقية ونحوهما لا انه اقرار بتوحيد الالهية لانهم يجعلون أوثانهم أرباباً كما عرفت ، فهذا الكفر الجاهلي كفر اعتقاد ومن لازمه كفر العمل ، بخلاف من اعتقد في الاولياء النفع والضر مع توحيد الله وايمان به وبرسوله وباليوم الآخر فانه كفر عمل ، فهذا تحقيق بالغ وايضاح لما هو الحق من غير افراط ولا تفريط . انتهى كلام السيد المذكور رحمه الله تعالى

وأقول هـذا الكلام في التحقيق ليس بتحقيق بالغ بل كلام متناقض متدافع ، وبيانه انه لاشك ان الكفر ينقسم الى كفر اعتقاد وكفر عمل لكن دعوى ان مايفعله المعتقدون في الاموات من كفر العمل في غاية الفساد ، فانه قد ذكر في هذا البحث ان كفر من اعتقد في الاولياء كفر عمل هذا عجيب ! كيف يقول كفر من يعتقد في الاولياء ويسمي ذلك اعتقادا ثم يقول انه من الكفر العملي ؟ وهل هذا الا التناقض البحت والتدافع الخالص ؟ انظر كيف ذكر في أول البحث ان كفر من يدعو الاولياء ويهتف بهم عند الشدائد ويطوف بقبورهم ويقبل جدرانها وينذر لها بشيء من ماله هو كفر عملي ، فليت شعري ماهو الحامل له على الدعاء والاستغاثة وتقبيل الجدران ونذر النذورات هل هو مجرد اللعب والعبث من دون اعتقاد؟ فهذا لا يفعله الا مجنون ، ام الباعث عليه الاعتقاد في الميت؟ فكيف لا يكون هذا من كفر الاعتقاد الذي لولاه لم يصدر فعل من تلك الافعال ؟ ثم انظر كيف اعترف بعد ان حكم على هـذا الكفر بأنه كفر عمل لا كفر اعتقاد بقوله « لكن زين له الشيطان ان هؤلاء عباد الله الصالحين ينفعون ويشفعون فاعتقد ذلك جهلا كما اعتقده أهل الجاهلية في الاصنام » فتأمل كيف حكم بأن هذا كفر اعتقاد ككفر أهل الجاهلية واثبت الاعتقاد واعتذر عنهم بأنه اعتقاد جهل

وليت شعري أي فائدة لكونه اعتقاد جهل؟ فان طوائف الكفر بأسرها وأهل الشرك قاطبة انما حملهم على الكفر ودفع الحق والبقاء على الباطل الاعتقاد

جهلا ،وهل يقول قائل ان اعتقادهم اعتقاد علم؟ حتى يكون اعتقاد الجهل عذر لاخوانهم المعتقدين في الاموات. ثم تمم الاعتذار بقوله : لكن هؤلاء مثبتون للتوحيد. الى آخر ما ذكره . ولا يخفاك ان هذا عذر باطل فان اثباتهم التوحيد ان كان بألسنتهم فقط فهم مشتركون في ذلك هم واليهود والنصارى والمشركون والمنافقون ،وان كان بافعالهم فقد اعتقدوا في الاموات ما اعتقده أهل الاصنام في أصنامهم، ثم كرر هذا المعنى في كلامه وجعله السبب في رفع السيف عنهم وهو باطل فما ترتب عليه مثله باطل فلا نطول برده

بل هؤلاء القبوريون قد وصلوا الى حد في اعتقادهم في الاموات لم يبلغه المشركون في اعتقادهم في أصنامهم وهو ان الجاهلية كانوا اذا مسهم الضر دعوا الله وحده وانما يدعون أصنامهم مع عدم نزول الشدائد من الامور كما حكاه الله عنهم بقوله(واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه فلما نجاكم الى البر اعرضتم وكان الانسان كفورا) وبقوله تعالى (قل أرأيتكم ان أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة اغير الله تدعون ان كنتم صادقين ؟) وبقوله تعالى (واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو اليه من قبل) وبقوله تعالى (واذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين) بخلاف المعتقدين في الاموات فانها اذا دهتهم الشدائد استغاثوا بالاموات ، نذروا لهم النذور وقل من يستغيث بالله سبحانه في تلك الحال ، وهذا يعلمه كل من له بحث عن أحوالهم ، ولقد اخبرني بعض من ركب البحر للحج أنه اضطرب اضطرابا شديدا فسمع من أهل السفينة من الملاحين وغالب الراكبين معهم ينادون الاموات ويستغيثون بهم ولم يسمعهم يذكرون الله قط قال ولقد خشيت في تلك الحال الغرق لما شاهدته من الشرك بالله (١) وقد سمعنا عن جماعة من أهل البادية المتصلة بصنعاء ان كثيرا منهم اذا حدث له ولد جعل قسطاً من ماله لبعض الاموات المعتقدين ويقول انه قد اشترى ولده من ذلك الميت الفلاني بكذا فاذا عاش حتى يبلغ سن الاستقلال دفع ذلك الجعل

(١) قد تكرر وقوع مثل هذه الحادثة فتجد في مصر وبلاد الشام من يذكر مثلها . ومما نقل الينا منها ان بعض الموحدين لما سمع ركاب السفينة يستغيثون بهؤلاء الموتى ويدعونهم لانقاذهم بانقاذ السفينة : ياسيد يابدوي ، يادسوقي يامتبولي الخ دعا ربه قائلا : اغرق اغرق فانه لم يبق أحد يعرفك

لمن يعتكف على قبر ذلك الميت من المحتالين لكسب الاموال

وبالجملة فالسيد المذكور رحمه الله تعالى قد جرد النظر في بحثه السابق الى الاقرار بالتوحيد الظاهري واعتبر مجرد التكلم بكلمة التوحيد فقط من دون نظر الى ماينافي ذلك من افعال المتكلم بكلمة التوحيد ويخالفه من اعتقاده الذي صدرت عنه تلك الافعال المتعلقة بالاموات . وهذا الاعتبار لاينبغي التعويل عليه ولا الاشتغال به فالله سبحانه انما ينظر الى القلوب وما صدر من الافعال عن اعتقاد لا الى مجرد الالفاظ والا لما كان فرق بين المؤمن والمنافق

وأما مانقله السيد المذكور رحمه الله تعالى عن ابن القيم في أول كلامه من تقسيم الكفر الى عملي واعتقادي فهو كلام صحيح وعليه جمهور المحققين ولكن لايقول ابن القيم ولا غيره ان الاعتقاد في الاموات على الصفة التي ذكرها هو من الكفر العملي ، وسننقل هاهنا كلام ابن القيم في ان ما يفعله المعتقدون في الاموات من الشرك الاكبر كما نقله عنه السيد رحمه الله تعالى في كلامه السابق ثم نتبع ذلك بالنقل عن بعض أهل العلم فان السائل كثر الله فوائده قد طلب ذلك في سؤاله فنقول :

قال ابن القيم في شرح المنازل في باب التوبة : وأما الشرك فهو نوعان أكبر وأصغر ، فالاكبر لايغفره الله الا بالتوبة منه وهو ان يتخذ من دون الله ندا يحبه كما يحب الله بل أكثرهم يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله ويغضبون لمنتقص معبوديهم من المشايخ أعظم مما يغضبون اذا انتقص أحد رب العالمين ، وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جهرة ، ونرى أحدهم قد اتخذ ذكر معبوده على لسانه ان قام وان قعد وان عثر وهو لاينكر ذلك ويزعم انه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ، وهكذا كان عباد الاصنام سواء ، وهذا القدر هو الذي قام بقلوبهم وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم فأولئك كانت آلهتهم من الحجر وغيرهم اتخذها من البشر ، قال الله تعالى حاكيا عن اسلاف هؤلاء (والذين اتخذوا من دونه أولياء : مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ، ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون * ان الله لايهدي من هو كاذب كفار) وهكذا حال من اتخذ من دون الله وليا يزعم انه يقربه الى الله تعالى ، وما أعز من تخلص من هذا ! بل ما أعز من لا يعادي من أنكره ! ! والذي قام بقلوب هؤلاء المشركين ان آلهتهم تشفع لهم عند الله ، وهذا عين الشرك ، وقد أنكر الله ذلك

في كتابه وابطله ، واخبر ان الشفاعة كلها له . ثم ذكر الآية التي في سورة سبأ وهي قوله تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الارض) وتكلم عليها ثم قال : والقرآن مملوء من أمثالها ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته ، ويظنه في قوم قد خلوا ولم يعقبوا وارثا ، وهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : انما تنقض عرى الاسلام عروة عروة اذا نشأ في الاسلام من لا يعرف الجاهلية . وهذا لانه اذا لم يعرف الشرك وما عابه القرآن وذمه وقع فيه وأقره ودعا اليه وصوبه وحسنه وهو لا يعرف انه هو الذي كان عليه أهل الجاهلية او نظيره أو شر منه أو دونه فتنقض بذلك عرى الاسلام ويعود المعروف منكرا والمنكر معروفا ، والبدعة سنة والسنة بدعة ، ويكفر الرجل بمحض الايمان وتجريد التوحيد ويبدع بتجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ومفارقة الاهواء والبدع ومن له بصيرة وقلب حي سليم يرى ذلك عيانا والله المستعان . ثم في ذلك الكتاب

(فصل) وأما الشرك الاصغر فكثير كالرياء (١) والتصنع للخلق والحلف بغير الله كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم انه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك بالله » وقول الرجل للرجل ماشاء الله وشئت ، هذا من الله ومنك ، وأنا بالله وبك ، ومالي الا الله وانت ، وأنا متوكل على الله وعليك ، ولولا انت لم يكن كذا وكذا . وقد يكون هذا شركا أكبر بحسب حال قائله ومقصده .

ثم قال ابن القيم رحمه الله تعالى في ذلك الكتاب بعد فراغه من ذكر الشرك الاكبر والاصغر والتعريف لهما : ومن أنواع الشرك سجود المريد للشيخ ومن أنواعه التوبة للشيخ فانها شرك عظيم ، ومن أنواعه النذر لغير الله (٢) والتوكيل على غير الله ، والعمل لغير الله والانابة والخضوع والذل لغير الله وابتغاء

---

(١) في مدارج السالكين المطبوع بمطبعة المنار سنة ١٣٣٦ هـ « فكيسير الرياء » الخ : (٢) قد جعل ابن القيم الخوف والتوكل نوعا فقال : ومن أنواعه الخوف من غير الله والتوكل على غير الله والعمل لغير الله والانابة والذل لغير الله ، وابتغاء الرزق من عند غيره الخ

الرزق من عند غير الله(١) واضافة نعمه الى غيره ، ومن أنواعه طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه اليهم وهذا أصل شرك العالم، فان الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا لمن استغاث به أو سأله قضاء حاجته اوسأله ان يشفع له الى الله فيها ، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده (٢) فان الله تعالى لا يشفع عنده أحد الا باذنه ، والله لم يجعل استعانته وسؤاله سببا لاذنه وانما السبب لاذنه كمال التوحيد فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الاذن وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها وهذا حال كل مشرك والميت محتاج الى من يدعو له ويترحم عليه ويستغفر له كما أوصانا النبي صلى الله عليه وآله وسلم اذا زرنا قبور المسلمين أن نترحم عليهم ونسأل الله لهم العافية والمغفرة فعكس المشركون هذا وزاروهم زيارة العبادة لقضاء الحوائج والاستعانة بهم ، وجعلوا قبورهم أوثانا تعبد ، وسموا قصدها حجا ، واتخذوا عندها الوقفة وحلق الرءوس فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه ومعاداة أهل التوحيد ونسبتهم الى التنقص بالاموات وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك وأولياءه الموحدين المخلصين له الذين لم يشركوا به شيئا بذمهم ومعاداتهم وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص اذ ظنوا انهم راضون منهم بهذا وانهم أمروهم به وانهم يوالونهم عليه وهؤلاء أعداء الرسل في كل زمان ومكان وما أكثر المستجيبين لهم ! ولله در خليله ابراهيم عليه الصلاة والسلام حيث يقول : (واجنبني وبني ان نعبد الاصنام ، رب انهن اضللن كثيرا من الناس) وما نجا من هذا الشرك الاكبر الا من جرد توحيده لله وعادى المشركين في الله وتقرب بمقتهم الى الله . انتهى كلام ابن القيم

فانظر كيف صرح بأن مايفعله هؤلاء المعتقدون في الاموات هو شرك أكبر بل أصل شرك العالم ، وما ذكره من المعاداة لهم فهو صحيح (لاتجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله — يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوي وعدوكم أولياء — الى قوله — كفرنا بكم وبدا بيننا

(١) حذف المؤلف من بين هذه الفقرة والتي بعدها ثلاث فقرات وكذلك حذف قوله « واعتقاد ان يكون في الكون مالا يشاؤه » التي هي آخر هذا النوع

(٢) الذي في المدارج « والمشفوع له عنده » الخ ويوجد اختلاف بين المنقول هنا وبين مافي نسختنا لا يعول عليه اذ هو من قبيل اختلاف النسخ لا يتغير المعنى به

وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال شيخ الاسلام تقي الدين في الاقناع: ان من دعا ميتا وان كان من الخلفاء الراشدين فهو كافر، وان من شك في كفره فهو كافر: وقال أبو الوفاء بن عقيل في الفنون. لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن اوضاع الشرع الى تعظيم اوضاع وضعوها فسهلت عليهم اذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الاوضاع، مثل تعظيم القبور وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع فيها - : يامولاي افعل لي كذا وكذا، أو القاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد اللات والعزى انتهى

وقال ابن القيم في (اغاثة اللهفان) في انكار تعظيم القبور :وقد آل الامر بهؤلاء المشركين الى ان صنف بعض غلاتهم كتاباً سماه (مناسك المشاهد) ولا يخفى ان هذا مفارقة لدين الاسلام، ودخول في دين عباد الاصنام انتهى وهذا الذي اشار اليه هو ابن المفيد (١)

وقال في النهر الفائق أعلم ان الشيخ قاسما قال في (شرح درر البحار) ان النذر الذي يقع من أكثر العوام بأن يأتي الى قبر بعض الصلحاء قائلا: ياسيدي فلان ان رد غائبي أو عوفي مريضي فلك من الذهب أو الفضة أو الشمع أو الزيت كذا باطل اجماعاً لوجوه - الى ان قال - ومنها ظن ان الميت يتصرف في الامر واعتقاد هذا كفر، انتهى. وهذا القائل من أئمة الحنفية، وتأمل ما افاده من حكاية الاجماع على بطلان النذر المذكور وانه كفر عنده مع ذلك الاعتقاد

وقال صاحب (الروض) ان المسلم اذا ذبح للنبي صلى الله عليه وآله وسلم كفر انتهى وهذا القائل من أئمة الشافعية واذا كان الذبح لسيد الرسل صلى الله عليه وآله وسلم كفرا عنده فكيف بالذبح لسائر الاموات؟ وقال ابن حجر في شرح الاربعين له : من دعا غير الله فهو كافر انتهى

وقال شيخ الاسلام تقي الدين رحمه الله تعالى في الرسالة السنية: ان كل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعا من الالهية مثل ان يقول ياسيدي فلان اغثني أو انصرني او أرزقني أو أجبرني وانا في حسبك ونحو هذه الاقوال فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه فان تاب نجا والا قتل فان الله انما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لايجعل معه آله آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والاصنام لم يكونوا يعتقدون انها

(١) أي الذي ألف كتاب « مناسك المشاهد »

تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات ، وانما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو صورهم ويقولون انما نعبدهم ليقربونا الى الله زلفى ، ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله . فبعث الله رسله تنهى ان يدعى أحد من دونه لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة وقال تعالى (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا * أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) الآية . قال طائفة من السلف كان أقوام يدعون المسيح وعزيرا والملائكة ثم قال في ذلك الكتاب : وعبادة الله وحده لا شريك له هي أصل الدين وهو التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب قال الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول الا نوحي اليه انه لا اله الا أنا فاعبدون) وكان صلى الله عليه وآله وسلم يحقق التوحيد ويعلمه أمته حتى قال له رجل ما شاء الله وشئت قال « أجعلتني لله ندا ؟ قل ما شاء الله وحده » ونهى عن الحلف بغير الله وقال « من حلف بغير الله فقد أشرك » وقال صلى الله عليه وآله وسلم في مرض موته « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما فعلوا ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم « اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « لا تتخذوا قبري عيدا ولا بيوتكم قبورا وصلوا علي حيث ما كنتم فان صلاتكم تبلغني » ولهذا اتفق أئمة الاسلام على انه لا يشرع بناء المساجد على القبور ولا الصلاة عندها ، وذلك لان من أكثر الاسباب لعبادة الاوثان كان تعظيم القبور ولهذا اتفق العلماء على انه من سلم على النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند قبره انه لا يتمرغ بحجرته ولا يقبلها لانه انما يكون لاركان بيت الله فلا يشبه بيت المخلوق ببيت الخالق ، كل هذا لتحقيق التوحيد الذي هو أصل الدين ورأسه الذي لا يقبل الله عملا الا به ويغفر لصاحبه ولا يغفر لمن تركه كما قال الله تعالى (ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد افترى اثما عظيما) ولهذا كانت كلمة التوحيد أفضل الكلام وأعظمه ، وأعظم آية في القرآن آية الكرسي (الله لا اله الا هو الحي القيوم) وقال صلى الله عليه وآله وسلم « من كان آخر كلامه لا اله الا الله دخل الجنة » والاله هو الذي يألهه القلب عبادة له واستغاثة ورجاء له وخشية واجلالا ، انتهى

وقال أيضاً شيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله تعالى في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) في الكلام على قوله (وما أهل به لغير الله) ان الظاهر انه ما ذبح لغير الله سواء لفظ به أولم يلفظ وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه وقال فيه باسم المسيح ونحوه كما ان ما ذبحناه متقربين به الى الله كان أزكى مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فان عبادة الله بالصلاة والنسك له أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الامور، والعبادة لغير الله أعظم من الاستعانة بغير الله، فلو ذبح لغير الله متقربا اليه يحرم وان قال فيه بسم الله كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الامة وان كان هؤلاء مرتدين لاتباح ذبيحتهم بحال لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، ومن هذا ما يفعل بمكة وغيرها من الذبح، ثم قال في موضع آخر من هذا الكتاب: ان العلة في النهي عن الصلاة عند القبور ما يفضي اليه ذلك من الشرك. ذكر ذلك الامام الشافعي رحمه الله تعالى وغيره، وكذلك الائمة من أصحاب أحمد ومالك كأبي بكر الاثرم عللوا بهذه انتهى. وكلامه في هذا الباب واسع جدا وكذلك كلام غيره من أهل العلم

وقد تكلم جماعة من أئمة أهل البيت رضوان الله عليهم ومن اتباعهم رحمهم الله في هذه المسألة بما يشفى ويكفي ولا يتسع المقام لبسطه وآخر من كان منهم نكالا على القبوريين وعلى القبور الموضوعة على غير الصفة الشرعية مولانا الامام مهدي العباس بن الحسين بن القاسم رحمه الله فانه بالغ في هدم المشاهد التي كانت فتنة للناس وسببا لضلالهم وأتى على غالبها ونهى الناس عن قصدها والعكوف عليها وكان في عصره جماعة من أكابر العلماء توسلوا اليه بوسائل وكان ذلك هو الحامل له على نصرة الدين بهدم طواغيت القبوريين

وبالجملة فقد سردنا من أدلة الكتاب والسنة فيما سبق مالا يحتاج معه الى الاعتضاد بقول أحد من أهل العلم، ولكنا ذكرنا ما حررناه من أقوال أهل العلم مطابقة لماطلبه السائل كثر الله فوائده، وبالجملة فاخلاص التوحيد هو الامر الذي بعث الله لاجله رسله وأنزل به كتبه وفي هذا الاجمال ما يغني عن التفصيل، ولو اراد رجل ان يجمع ما ورد في هذا المعنى من الكتاب والسنة لكان مجلدا ضخما. انظر فاتحة الكتاب التي تكرر في كل صلاة مرات من كل فرد من الافراد ويفتتح بها التالي لكتاب الله والمتعلم له فان فيها الارشاد الى

اخلاص التوحيد في مواضع فمن ذلك (بسم الله الرحمن الرحيم) فان علماء المعاني والبيان ذكروا انه يقدر المتعلق متأخرا ليفيد اختصاص البداية باسمه تعالى لا باسم غيره وفي هذا مالا يخفى من اخلاص التوحيد ، ومنها في قوله (الحمد لله رب العالمين) فان التعريف يفيد ان الحمد مقصور على الله واللام في الله يفيد اختصاص الحمد به ومقتضى هذا انه لا حمد لغيره أصلا ، وما وقع منه لغيره فهو في حكم العدم ، وقد تقرر ان الحمد هو الثناء باللسان على الجميل الاختياري لقصد التعظيم فلا ثناء الا عليه ولا جميل الا منه ولا تعظيم الا له ، وفي هذا من اخلاص التوحيد ماليس عليه مزيد ومن ذلك قوله (مالك يوم الدين) أو (ملك يوم الدين) على القراءتين السبعيتين فان كونه المالك ليوم الدين يفيد انه لا ملك لغيره فلا ينفذ الا تصرفه لا تصرف أحد من خلقه من غير فرق بين نبي مرسل وملك مقرب وعبد صالح ، وهذا معنى كونه « ملك يوم الدين » فانه يفيد ان الامر أمره والحكم حكمه ليس لغيره معه أمر ولا حكم كما انه ليس لغير ملوك الارض معهم أمر ولا حكم ، ولله المثل الاعلى . وقد فسر الله هذا المعنى الاضافي المذكور في فاتحة الكتاب في موضع آخر من كتابه العزيز فقال (وماادراك مايوم الدين ؟ * ثم ما ادراك مايوم الدين ؟ * يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والامر يومئذ لله) ومن كان يفهم كلام العرب ونكته واسراره كفته هذه الآية عن غيرها من الادلة واندفعت لديه كل شبهة ومن ذلك (اياك نعبد) فان تقديم الضمير قد صرح أئمة المعاني والبيان وأئمة التفسير انه يفيد الاختصاص فالعبادة لله سبحانه ولا يشاركه فيها غيره ولا يستحقها ، وقد عرفت ان الاستغاثة والدعاء والتعظيم والذبح والتقرب من أنواع العبادة ومن ذلك قوله (واياك نستعين) فان تقديم الضمير ههنا يفيد الاختصاص كما تقدم وهو يقتضي انه لا يشاركه غيره في الاستعانة به في الامور التي لا يقدر عليها غيره ، فهذه خمسة مواضع في فاتحة الكتاب يفيد كل منها اخلاص التوحيد مع ان فاتحة الكتاب ليست الا سبع آيات فما ظنك بما في سائر الكتاب العزيز فذكرنا لهذه الخمسة المواضع في فاتحة الكتاب كالبرهان على ما ذكرناه من ان في الكتاب العزيز مايطول تعداده وتتعسر الاحاطة به ، ومما يصلح ان يكون موضعا سادسا لتلك المواضع الخمسة في فاتحة الكتاب قوله (رب العالمين) وقد تقرر لغة وشرعا ان العالم ماسوى الله سبحانه وصيغ الحصر اذا تتبعتها من كتب المعاني والبيان

والتفسير والاصول بلغت ثلاث عشرة صيغه فصاعدا ومن يشك في هذا فليتتبع كشاف الزمخشري فانه سيجد فيه ماليس له ذكر في كتب المعاني والبيان كالقلب فانه جعله من مقتضيات الحصر ولعله ذكر ذلك عند تفسيره للطاغوت وغير ذلك مما لايقتضي المقام بسطه ، ومع الاحاطة بصيغ الحصر المذكورة تكثر الادلة الدالة على اخلاص التوحيد وابطال الشرك بجميع اقسامه

واعلم ان السائل كثر الله فوائده ذكر في جملة ما سأل عنه انه لو قصد الانسان قبر رجل من المسلمين مشهور بالصلاح ووقف لديه وأدى الزيارة وسأل الله بأسمائه الحسنى وبما لهذا الميت من المنزلة هل تكون هذه البدعة عبادة لهذا الميت ويصدق عليه انه قد دعا غير الله وانه قد عبد غير الرحمن وسلب عنه اسم الايمان ؟ ويصدق على هذا القبر انه وثن من الاوثان ؟ وبحكم بردة ذلك الداعي والتفريق بينه وبين نسائه واستباحة أمواله؟ ويعامل معاملة المرتدين ؟ أو يكون فاعلا معصية كبيرة أو مكروها ؟ (وأقول) أنا قد قدمنا في أوائل هذا الجواب انه لا بأس بالتوسل بنبي من الانبياء أو ولي من الاولياء أو عالم من العلماء وأوضحنا ذلك بما لامزيد عليه فهذا الذي جاء الى القبر زائرا ودعا الله وحده وتوسل بذلك الميت كان يقول: اللهم اني اسألك ان تشفيني من كذا وأتوسل اليك بما لهذا العبد الصالح من العبادة لك والمجاهدة فيك والتعلم والتعليم خالصا لك فهذا الاثر ورد في جوازه (١) لكن لاي معنى قام يمشي الى القبر ؟ فان كان لمحض الزيارة ولم يعزم على الدعاء والتوسل الا بعد تجريد القصد الى الزيارة فهذا ليس بممنوع فانه انما جاء ليزور وقد اذن لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزيارة القبور بحديث « كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فزوروها » وهو في الصحيح (٢) وخرج لزيارة الموتى ودعا لهم وعلمنا كيف نقول اذا نحن زرناهم وكان يقول « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وانا بكم ان شاء الله لاحقون وأتاكم ماتوعدون نسأل الله لنا ولكم العافية » وهو أيضاً في الصحيح بألفاظ وطرق

(١) تقدم في تعليقنا على هذا البحث أن سؤال المرء ربه ان ينفعه بعمل غيره مخالف للنصوص فراجعه في ص ٥ من هذه الرسالة (٢) زيارة القبور بقصد تذكر الآخرة والموت مشروعة وتعليل الاذن بزيارتها الناسخ للنهي عنها بتذكيرها بالموت والآخرة مصرح به في صحيح مسلم وكتب السنن وهو ينافي زيارتها للتبرك بها دع عبادتها ودعاء أصحابها

فلم يفعل هذا الزائر الا ماهو مأذون له به ومشروع لكن بشرط ان لا يشد راحلته ولا يعزم على سفر ولا يرحل كما ورد تقييد الاذن بالزيارة للقبور بحديث « لا تشد الرحال الا لثلاثة » وهو مقيد لمطلق الزيارة وقد خصص بمخصصات منها زيارة القبر الشريف النبوي المحمدي على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم وفي ذلك خلاف بين العلماء وهي مسألة من المسائل التي طالت ذيولها ، واشتهرت أصولها ، وامتحن بسببها من امتحن وليس ذكر ذلك ههنا من مقصودنا، وأما اذا لم يقصد مجرد الزيارة بل قصد المشي الى القبر ليفعل الدعاء عنده فقط وجعل الزيارة تابعة لذلك أو مشى لمجموع الزيارة والدعاء فقد كان يغنيه ان يتوسل الى الله بذلك الميت من الاعمال الصالحة من دون ان يمشي الى قبره

فان قال انما مشيت الى قبره لاشير اليه عند التوسل به فيقال له ان الذي يعلم السر وأخفى ويحول بين المرء وقلبه ، ويطلع على خفيات الضمائر ، وتنكشف لديه مكنونات السرائر ، لايحتاج منك الى هذه الاشارة التي زعمت انها الحاملة لك على قصد القبر والمشي اليه ، وقد كان يغنيك ان تذكر ذلك الميت باسمه العلم أو بما يتميز به عن غيره ، فما أراك مشيت لهذه الاشارة ، فان الذي تدعوه في كل مكان مع كل انسان ، بل مشيت لتسمع الميت توسلك به وتعطف قلبه عليك ، وتتخذ عنده يدا بقصده وزيارته والدعاء عنده والتوسل به ، وأنت ان رجعت الى نفسك وسألتها عن هذا المعنى فربما تقر لك به وتصدقك الخبر ، فان وجدت عندها هـذا المعنى الدقيق ، الذي هو بالقبول منك حقيق ، فاعلم انه قد علق بقلبك ماعلق بقلوب عباد القبور ، ولكنك قهرت هذه النفس الخبيثة عن ان تترجم بلسانك عنها وتنشر ما انطوت عليه من محبة ذلك القبر والاعتقاد فيه والتعظيم له والاستغاثة به ، فأنت مالك لها من هذه الحيثية ، مملوك لها من الحيثية التي اقامتك من مقامك ومشت بك الى فوق القبر ، فان تداركت نفسك بعد هذه والا كانت المستولية عليك المتصرفة فيك المتلاعبة بك في جميع ماتهواه مما قد وسوس به لها الخناس ، الذي يوس في صدور الناس من الجنة والناس

(فان قلت) قد رجعت الى نفسي فلم أجد عنـدها شيئا من هذا وفتشتها فوجدتها صافية عن ذلك الكدر فما أظن الحامل لك على المشي الى القبر الا انك سمعت الناس يفعلون شيئاً ففعلته ، ويقولون شيئا فقلته ، فاعلم ان هذه أول عقدة من عقود توحيدك ، وأول محنة من محن تقليدك ، فارجع تؤجر ، ولا تتقدم

تنحر، فان هذا التقليد الذي حملك على هذه المشية الفارغة العاطلة الباطلة سيحملك على اخواتها فتقف على باب الشرك أولا، ثم تدخل منه ثانياً، ثم تسكن فيه واليه ثالثاً، وانت في ذلك كله تقول: سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته، ورايتهم يفعلون أمراً ففعلته.

وان قلت انك على بصيرة في علمك وعملك، ولست ممن ينقاد الى هوى نفسه كالاول، ولا ممن يقهرها ولكنه يقلد الناس كالثاني، بل أنت صافي السر نقي الضمير، خالص الاعتقاد، قوي اليقين، صحيح التوحيد، جيد التمييز، كامل العرفان، عالم بالسنة والقرآن، فلا لمراد نفسك اتبعت، ولا في هوة التقليد وقعت، فقل لي بالله ما الحامل لك على التشبه بعباد القبور، والتغرير على من كان في عداد سليمي الصدور؟، فانه يراك الجاهل والحامل، ومن هو عن علمك وتميزك عاطل، فيفعل كفعلك يقتدي بك، وليس له بصيرة مثل بصيرتك، ولا قوة في الدين مثل قوتك، فيحكي فعلك صورة ويخالفه حقيقة، ويعتقد انك لم تقصد هذا القبر الا لامر، ويغتنم ابليس اللعين غربة (١) هذا المسكين الذي اقتدى بك، واستن بسنتك، فيستدرجه حتى يبلغ به الى حيث يريد، فرحم الله امرأ هرب بنفسه عن غوائل التقليد، واخلص عبادته للحميد المجيد،

وقد ظهر بمجموع هذا التقسيم ان من يقصد القبر ليدعو عنده هو أحد ثلاثة ان مشى لقصد الزيارة فقط وعرض له الدعاء ولم يحصل بدعائه تغرير على الغير فذلك جائز، وان مشى لقصد الدعاء فقط أو له مع الزيارة وكان له من الاعتقاد ما قدمنا فهو على خطر الوقوع في الشرك فضلا عن كونه عاصيا، واذا لم يكن له اعتقاد في الميت على الصفة التي ذكرنا فهو عاص آثم، وهذا أقل أحواله، واحقر ما يربحه في رأس ماله، (٢) وفي هذا المقدار كفاية، لمن له هداية، والله ولي التوفيق

تمت

وكان الفراغ من كتابة هذا يوم الاحد ٢٦ في شهر شعبان عام سنة ١٣١٦ بقلم مالكها لنفسه أحمد بن عوض بن عبد الله المصلي غفر الله له ولوالديه آمين

(١) لعله غرة وهي الغفلة (٢) كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينهى عن زيارة القبور كما ينهى عن اتخاذ الصور والتماثيل لانهما من اعمال الوثنيين ووسائل الشرك التي صارت مقاصد، ولما استقر الاسلام وزال الشرك اذن بزيارة القبور للرجال دون النساء وعلله بقوله « فانها تذكركم الموت » وقوله « فانها تذكركم الآخرة »، فزيارة القبور الشرعية المستحبة للرجال هي ما كان بهذا القصد فقط وما عداه فليس بشرعي وقد يكون معصية وقد يكون شركا كما كان من قبل كما وضحه المؤلف رحمه الله تعالى

LIBRARY

297.31:Sh56dA:c.1
الشوكاني ،محمد بن علي
الدر النضيد في اخلاص كلمة التوحيد..
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01005088

American University of Beirut

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT
UT VITAM HABEANT ABUNDANTIUS HABEANT
1866
الجامعة الأميركية في بيروت

297.31
Sh56dA

General Library

297.31
Sh56dA
c.1